

إيلاف الرّيش

حبّلتنا السري

تجليات أدبية
في الأمومة
والحمل والولادة

إيلاف الرّيش

حبّنا السري

تجليات أدبية
في الأمومة
والحمل والولادة

حبيلنا السري

تجليات أدبية
في الأمومة
والحمل والولادة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

أيار - مايو 1434 هـ - 2013 م

الطبعة الثانية

حزيران - يونيو 1435 هـ - 2014 م

ردمك 2-0929-01-614-978

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ديفاف

DIFAF PUBLISHING

editions.difaf@gmail.com

هاتف الرياض 0096650933772

هاتف بيروت 009613223227



4، زنقة المأمونية - الرباط - مقابل وزارة العدل

الهاتف: 212) 537.72.32.76 - الفاكس: 212) 537.20.00.55

البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

المحتويات

- 11 ما جاءت به النبوءة
- 13 حبلنا السرّي
- 15 الكتابة والأمومة
- 18 أمومةٌ أزلية
- 21 أمي التي أصبحت خمساً
- 23 شيءٌ كالسحر
- 24 ربي لا تذرني فرداً
- 25 خمسٌ شهورٍ عجافٍ
- 27 أمارات النبوءة
- 29 ما بين بين
- 32 صك الأمومة
- 34 بذرةٌ فرح
- 35 يا أيها القلب الصغير
- 38 أرضٌ طيبة
- 39 أمومةٌ مضاعفة
- 41 أكوان

42	الحب على طريقة الدمى الروسية.....
44	نور.....
45	أنوثة مضاعفة.....
48	وحدة.....
49	نحن نحمل طفلاً.....
50	الأشواق.....
53	الوحام.....
55	البحث عن اللزانيا.....
57	فهم آخر للحب.....
58	ملفتان بحبل سري.....
59	أخواتي في الأمومة.....
61	فستان.....
62	اللغة الأولى.....
64	الاسم المفقود.....
66	صلاة الصغار.....
67	صباحٌ أهديه لروحك.....
69	ترانيم حبٍ وتراتيلُ شوق.....
76	انكمشت الحياة. وتمددت بك.....
77	ماء السماء.....

78.....	منتصف الحلم
80.....	إجهاض
83.....	عودة
84.....	متجرٌ للفرح
86.....	مشغلٌ صغيرٌ
88.....	انشطار
89.....	الموعد الأخير

93.....	تحقق النبوءة
95.....	لما جاءها المخاض
97.....	أن يولد طفل
98.....	نبعٌ من الجنة
100.....	سُلاف
101.....	طقوس الصباح
102.....	عجز
103.....	قبلة
104.....	ملاكٌ باسم
105.....	عيد
106.....	الشوق إلى الداخل
108.....	قراءة في وجهٍ صغير

- 109..... قلب
- 110..... وفي غدٍ ستكبرين
- 111..... هدهدات
- 112..... الأمومة الأولى
- 114..... جمعك بركة
- 115..... سجنٌ أبيض
- 116..... كعكاتٌ صباحية
- 118..... صداقةٌ مبكرة
- 119..... تجدد الأسطورة
- 120..... فيض

في قلب كل فتاة
الأمومة نبوءةً منتظرة.
وما إن تصبح إحداهن أمًا.
تجددت الأسطورة..

ما جاءت به النبوءة

حبلنا السري

في كونٍ صغيرٍ تُلقى بذرة، تلتقي بشمس
فتنبض، لا يخرج منها شعاعٌ نورٍ فقط بل حبلٌ
طويلٌ من النجوم، يربطها بكونٍ أكبر، يسمونه
الحبلُ السريّ.

الحبل الذي لا أراه نال هذا الاسم لأنه ينبت
من سُرة الجنين، يلتصق بمشيمة أمه فيمده
بالغذاء فقط. بل لأنه الوسيط الخفي بين
حياتين، بين الأم وطفلها المرتقب، من خلاله
تبوح له بأسرارها، تفضي بما في قلبها، تسرُّ
بأشواقها ومحبتها وانتظارها، من خلاله يسمع
هدداتها وأغنياتها وتحيطه بدعواتها.

حبلنا السري، أنا وأنتِ، أيتها المتخلقة
في داخلي سيظل شاهداً على تفاصيل الحياة
الأولى التي مني انبثقت، وكل الحيوانات الأخرى
منذ الولادة الأولى وحتى تكف الأرحام عن الإتيان
بالحياة..

السيرة التي في جسدك، هي ختم الحياة
على أجسادنا، هي الدليلُ على المكان الذي أتينا
منه، وكأن حبلًا سرياً يمتدُّ منها منذ الأزل، يمتدُّ
متصلاً بحبالٍ سريةٍ أخرى، سلسلةٌ طويلة من
الحبالِ لا تنقطع، تمر بأمهاتنا وجداتنا وجدات
جداتنا إلى أن تصلنا بأمننا حواء، حبالٌ سريةٌ
طويلة، لا ترى ولكنها تُحس ..

الكتابة والأمومة

لغات الكتابة عديدة. لغة الشعر. لغة القصة. لغة الهجاء. لغة الحب. لغة الأشواق وغيرها كثير إلا أن اللغة الأجمل هي لغة الأمومة. الكتابة عن الأمومة شهية. لها رائحة البودرة وكلونيا الأطفال. ولها طعم خد طفلٍ طري صحا من النوم لتوه.

الكتابة عن الأمومة. عن مراحلها المشهاة بدءاً من التكوين والخلق الأول. ما هي الا كتابة عن العاطفة الإنسانية الأسمى. عن الرحلة الأبدية التي ما انتهت في مكان إلا ابتدأت في مكانٍ آخر. عن انبثاق الحب من المجهول. عن الإنسان الذي ما كان شيئاً مذكوراً لأمه فصار لها كل شيء.

كلما بحثت عن كتبٍ أو نصوص تحكي سيرة الحمل والأمومة على لسان الأمهات ازددت عجباً من ندرتها بل أنها تكاد تكون معدومة.

فمالذي انطلق الأدبيات والكاتبات في مجالات الروح
الشتى وأسكتهن عن الحديث في أقرب موضوعٍ
لهن. والأكثر زخماً في التأمّلات والمشاعرة..

لا أرى الكتابة عن الحمل أمراً خاصاً. بل
هو عامٌّ جداً. يظنّ له الأدب ويحتاجه. وليست
المشاعرة التي تعترى المرأة خلاله سرا لا يجوز
طرفه. بل هي من صميم الأمومة التي يقدها
الجميع. لماذا نكتفي حين نكتب عن الأمومة
أن نصف سهر الليالي والتضحيات والأحضان
الحنونة. الأمومة تبدأ قبل ذاك بكثير..

تبدأ منذ أن تحنو الطفلة الصغيرة على
دميتها. منذ أن تهدد الفتاة أخيها الصغير
لينام ومنذ أن تبذر النطفة في الرحم الغض..
مهما برزت البطون وامتألت الأرحام وتوالت
الولادات. تبقى كل تجربة حملٍ تجربة تستحق
أن يُكتب عنها. أن تحكيها صاحبتهن للأخريات.
أن تفخر بها وأن توجج في صدرها مشاعراً
جديدة وفي عقلها المزيد المزيد من التأمّلات.

اعتدتُ أن أتعامل مع أحداث الحياة عن
طريق الأدب. اعتدت أن أحول كل شيءٍ لكلمات.
ولعل أجمل مشروع أدبي سأقوم به هو أن أجعل
من حملي الأول نصاً أدبياً طويلاً. قصيدةً معزوفةً
على أوتار الأمومة. وفصلاً جميلاً في كتاب الأدب
العربي العريق.

أمومةٌ أزليةٌ

في داخل كل فتاة صغيرة أمٌ عظيمة. منذ أن ابتاعت دميتها الأولى. خصصت رفاً لملابسها في الدولاب. أعدت لها من الهواء طعاماً في أوانٍ بلاستيكيةٍ ملونة. اصطحبتها في زيارات الأهل والنزهات العائلية. أعطتها اسماً وكومة حب واطمأنت على استغراقها بالنوم قبل أن تطفئ الأنوار وتنام.

الطفلة حين تهدد لعبتها. تطعمها وتستبدل ثيابها. لا تفعل ذلك لأنها تلهو. بل لأنها تمارس حقيقتها. تمثل لفطرتها وطبيعتها. أمٌ صغيرةٌ هي وإن كان طفلها من قطنٍ وحلم..

الأمومة. هبةٌ ربابيةٌ أودعها الله قلبَ كل أنثى بلا تمييز. بلا ميعادٍ لبدئها ولا خوفٍ من نضوب. ميزةٌ للأنثى. زينةٌ لها. واكتمالٌ لمحاسنها. حين يُرصعُ ما بين جنبتيها بقلب أم.

حلمٌ أولٌ قد تحقق، مليكةٌ توجت على
عرشٍ من الزهور، انساب خلف شعرها نهرٌ أبيضٌ
يتبع ذيل الفستان، وغاضت عن العيون من وراء
الباب تتشبث بذراع رجل، وكل ما تتمناه بعد أن
تخلع فستانها الأبيض أن ترى بطنها وقد امتد
أمامها ذراعاً لينبأ بقدم طفل!

لتحى تجربةً فريدة، لا تشبه تجربة أخرى،
بالرغم من توالي الولادات وحالات الحمل، من
تكرارها المفرط بين نساء العالمين، إلا أن تجربة
الحمل الأولى للمرأة ستكون شيئاً مدهشاً،
مبهراً، خارقاً، ولو بالنسبة لها وحدها على الأقل،
ستشعر وكأنها الولادة الأولى على وجه الأرض، لا
امرأةً وضعت قبلها ولا أخرى من بعدها ستحبل.
ستطرح نسياناً كل أحاديث النساء التي
تلتصت عليها منذ طفولتها ومراهقتها،
ستشعر بالاكتماء إذ آن لها أن تعيش ما كانت
تسمع.

يقولون بأن الرجال محظوظون، نجاهم الله

من أوهان الحمل وآلام الولادة. ولكنني أراهم حرموا
بذلك خيراً كثيراً. حرموا من تلمس الحياة وهي
تنمو بدواخلهم رويداً رويداً. جسداً في جسد.
وأرى النساء اللاتي ما وعين من الحمل إلا
مشقته أيضاً حرموا خيراً كثيراً..

أمي التي أصبحت خمساً

كملاكٍ يعترش كرسية. تجلس على الأريكة
في صالة منزلنا. تحبُّ بها أربع نساءٍ صغيراتٍ
يُشبهنها. أخذت كلَّ واحدةٍ منهن جزءاً منها.
ظفرتُ أنا بأحب أجزاءها إلى نفسي وهو لونها
الأبيضُ الصافي. كلون القشطةِ على مائدةِ
افطارٍ صباحي .

عيناها الجميلتان. أقرب لعيني أختي
الوسطى. وأنفها حادٌّ أشمّ كذاك الذي يتوسطُ
وجه أختي الكبرى. أما صُغرانا والتي تبدو
كقطعةِ شوكولاتةٍ ممزوجةٍ بقليلٍ من الحليب.
فلم تأخذ منها إلا الوجه الصغير الذي بالكادِ
يتسعُ لقسماته.

أتأملُ منظرها محاطةً بيناتها الأربع. أولائي
اللاتي ما كنَّ شيئاً يُذكرُ في حياتها. ولا أوحى
لها الله بأنهن سيخرجن من أحشائها يوماً.
أتأملُ منظرها وقد أصبحت خمسُ نساءٍ

بعدها كانت امرأةً واحدة! بل بعدما كانت في
ما مضى طفلةً تلحقها ظفيرةً طويلةً كلما
جرت مع أقرانها تلعبُ وتلهو ..

ابتسم لفرط دهشتي من هذا الموضوع.
قد يراه الكلُّ أمراً طبيعياً. بينما يوقفني جائرةُ
أمام عظمة أن تصبح المرأةُ أم. أن تصبحَ أناسٌ
كثير بعدما كانت شخصاً واحداً !

نرى بطنها يكبر أمامها ويمتلئُ بروحها
ودمائها. تتخلق بداخله نفسٌ جديدة. تشاركها
نومها وطعامها وحياتها. تتخلقُ فيها. لتنفصل
عنها..

ولكن. أتراها تعتقد بأنها ستنفصل حقاً
؟ بأنها لن تعد جزءاً منها. ولو مضت سنواتٌ
طوالً على الانفصال ؟

أنا. أنا فعلا لا أعتقد بأنني انفصلت عن
أمي. لا أدرك بأنني لم أعد جزءاً منها ..

شيءٌ كالسحر

أترقب نبأ الحمل. وأتساءل :

كيف لنا أن نحب أناسًا لم نقابلهم بعد. لا ندري متى سيأتون، لا ندري أسياتون أصلاً أم لا ولا نعرف حتى ملامحهم، نظل نتخيلهم. ننتظرهم ونشتاق لاحتضانهم إلى أن نفتح أعيننا ذات يوم لنبكي فرحة مجيئهم ورهبة وجودهم المفاجئ في حياتنا.

ما أعمق ذاك الحب الذي يولد من الداخل، يكبر في الأعماق، ويأتي قبل اللقاء وقبل الوجود حتى..

ربي لا تذرنى فردا

شيخٌ بلغ من العمر عتياً. يلهج قلبه بالدعاء
أن ربي لا تذرنى فردا. ذاك ابراهيم عليه السلام.
ودعاؤه الذي ما زالت تلهج به القلوب الميممة
شطر السماء. تدعو الله بوجل أن يضاعف لها
الحياة بحياةٍ جديدةٍ تخرج من صلبها وتنمو في
حجرها.

دعاءً تأملتُ فيه طويلاً. فسبحان من أودع
في مخلوقٍ صغيرٍ يخرج منك. هذه القدرة
العجيبة على ملء الحياة.

ربي لا تذرنى فردا..

فكأن الإنسان بظل وحيدا مهما كثر
حوله الناس والأصدقاء. لا شيء يجعله يشعر
بتضاعفه. لا إخوته ولا زواجه ولا الأقرباء. وحده
هذا الطفل الصغير. هذا المخلوق العجائبي
الذي ينمو بداخلك وخارجك. قادرٌ على جعلك
متعددا. كثيرا. آخراً لا فرداً. ممتداً عبر الزمن..

خمسة أشهر عجاف

إنها الثامنة صباحاً والكويت مازالت تغمض
عينها بسلام. تبدو كسولة في آخر أيام عطلتها
الأسبوعية. تكاد تخلو الطرقات من المرتادين
والشمس مازالت مائلة في طرف السماء. مميلةً
معها ظلال الأشجار وأعمدة الإنارة. في بدايات
نوفمبر نحن. في بدايات الخريف واعتدال الجو.
نسيماتٌ عذبة تتخللها برودة تنشي الروح وتنذر
بشتاءٍ قارص .

أمسك بمقود السيارة واتجه لمكانٍ ما
كنت أخطط لارتياحه اليوم. أجلس الآن في
المشفى وأحلق في الفراغ. في الحائط الأبيض
قبالتي. في اللا شيء وفي غيابة المستقبل.
انهيت لتوي اجراء فحص الحمل. تفصلني عن
النتيجة ساعة. قررت خلالها احتساء مخاوفي
وأشواقني مع كوب قهوة. في مقهىٍ معلقٍ على
الطابق الأول من المشفى - ويجدر بي في هذا

السياق أن أعترف بأمر ما! - في بداية الزواج،
أخبرت زوجي بأنني لا أرجو الحمل قبل مضي
سنة شهور كفترة للتعارف والحب، ولكني اليوم
ولم يمضي على زفافي إلا خمسة شهور أجري
فحص الحمل للمرة الثالثة!

ولا أظن السبب في ذلك سوى الفطرة
والغريزة. والحلم الكبير للفتيات الصغيرات بأن
يلجن عالم الأمومة بأحلامهن قبل بطونهن، مذ
كن يخبئن الوسائد تحت فساتينهن حين يلعبن
ببراءة.

ويبدو أنني عندما أخبرت زوجي بأمنيته لم
أكن أدرك أن كل شهر تحيض فيه المتزوجة
حديثاً سيحمل معه مخاوفاً أكثر من الشهر
الذي سبقه، خصوصاً وإن لم تكن قد اتخذت
احترازاات المنع من الحمل، وستتساءل بوجل، هل
ثمة ما ينقص جسدي كي لا يثمر؟

أمارات النبوءة

ما بين بين

كُتبت الكلمات السابقة قبل شهر، ولم أطوِ
الصفحة لكتابة كلماتٍ جديدةٍ لأنه وببساطة،
كانت النتيجة سلبية. استلمت الورقة من
الموظفة التي كانت تحاول أن لا تنظر لعيني.
ناولتني إياها بملامح جامدة، ولم تكلف نفسها
حتى بأن تقرأ لي النتيجة، ربما بحكم عملها
الطويل في هذا المكان استطاعت بحدسٍ
قاسٍ أن تدرك بأنني سأتمكن من قراءة النتيجة
بخيبة .

تنهدت ومضيت خارج المشفى أحمل في
قلبي يقيناً بحكمةِ الله وشوقاً لاحتضان طفل.
واليوم بعد أن طوى الشهر أيامه ورحل،
أمضي لمشفىٍ غيره، أجري تحليل الحمل للمرة
الرابعة، لعلني أبشر زوجي بطفلٍ وشيكٍ ونحن
نحتفل اليوم بمرور الشهر السادس على زواجنا.
والحكمة من اللجوء لمشفى جديد، هي

أنني قد تشاءمت من القديم. ومن النتيجة السلبية التي كان يدلي بها مختبره في كل مرة. هذه المرة كان الأمل لدي أكبر. وكأن أمنيته التي بعثت بها دون ادراكٍ للسماء قد تنزلت.

كنت في السابق أخاف من الإبرة. ولازلت أذكر كيف كانت الممرضات الثلاث يحاولن اقناعي لمدة عشر دقائق بمد يدي لاجراء الفحص الطبي قبل الزواج وكنت أمانع. أما اليوم فأجلس بكل هدوء على مقعد سحب الدم. أرفع أكمامي. أمد يدي. واخبر الممرضة بأن الأوردة في ذراعي اليمنى أفضل لانغراس الابرة. ابتسم وعبث بهاتفني ريثما تنتهي. ولا يدلني ذلك لشيء، إلا لأن غريزة الأمومة أقوى من غريزة الزواج!

ما يميز هذا المشفى، أن نتيجة الفحص لا تستغرق إلا نصف ساعة. أي أقل من المشفى القديم بنصف الوقت. ولا استطيع أن أشرح ما تعنيه الدقائق الثلاثين بالنسبة لمن تنتظر خبر حملها لأول مرة. أما الميزة الأخرى فهي

أن الموظفة لم تسلمني النتيجة بوجهٍ تشيح
بملامحه عني، بل انزوت بي بطرف غرفة الانتظار
وأخبرتني بأن النتيجة تتأرجح بين الحمل وعدمه،
تميل لوجوده ولكنها ستسلمني ورقة بنتيجة
سلبية على أن آتي بعد يومين لاعادة الفحص.
بريق أمل، خيرٌ من عتمة العدم، حمدت
الله وفرحت فرحا متحفظاً بقدر النتيجة، أخذت
الورقة السلبية ومضيت لسيارتي بإيجاب يملأ
روحي.

صك الأمومة

بعد يومين أعدت الفحص واستلمت الورقة التي تشير في كلماتها لنتيجة إيجابية. تكتب تحت البيانات بسطر: PREGNANCY TEST: POSITIVE

ثم تترك بقيتها مشرعة على البياض، خالية من أي شيءٍ عداه. تبدو كصكٍ للاعتراف بجدوى الجسد الأنثوي وقدرته على مزاوله غايته. على الإتيان بحياةٍ جديدة.

استلمت من الموظفة الورقة، وهي تهنئني بوجهٍ بشوش. لوهلة سمعت صوتا بداخلي يقول: وماذا بعد؟ وكأنه ينتقم من كل لحظات الترقب الماضية، وكأنني قد حققت انتصارا على كل التحاليل السلبية السابقة!

كانت لحظة فراغ، لا شعورٌ يسكنها ولا أفكار. لحظة مفرغة من الفرح والخوف، مجهولة كجزيرة خرافية في محيط، كنقطة

في وسط صفحة بيضاء شاسعة. لا تسبقها
ولا تليها كلمات..

لست أبدا ممن يبالغون في اظهار الفرح.
أحيانا أبدا أمامه بليدة لا مبالية. وكانت تلك
اللحظة من تلك الأحيان!

لكن. عندما بلغت سيارتي أدركت بأن يدي
ترتجفان. انتابني بعض الفزع وخفق قلبي بشدة.
حينها وددت أن أضع رأسي في حضن أمي. ولكن
أمي كانت في الصين وحضنها هناك معها!
وددت أن أعانقها لتمدني بقوى الأمومة.
لأخبرها بأنني قد استملت منها الشعلة التي
تضيء دورة الأنوثة في الحياة وسأمضي حاملة
إياها ريثما أعطيها لابنتي. لنكمل المضي في
الإتيان بحيوات جديدة. حيوات أخرى تملأ هذا
العالم بالمزيد من القلوب التي تضخ الحب في
أرجائه ..

بذرة فرح

الأجِنَّةُ. أفراحٌ صغيرة
يودعها الله أرحام الأمهات
فتكبرُ وتكبر
إلى أن تكتمل..
تغادرها
تلتقي بأفراحٍ أخرى
وتظلُّ تكبرُ

يا أيها القلب الصغير

الزيارة الأولى في العام الجديد..

كل الجدران علقت على صدورها رزنامات
جديدة. بأوراق بيضاء تحفل بالأمل. لم تُكتب
على صفحاتها بعد سوى الأمنيات..

رزنامتي. أحتضنها الآن ولا أدري ماذا أكتب
بها. كيف سأخبرها عن أول زيارة أقوم بها في
هذا العام. زيارةً مختلفة تماماً عما كتبت عنه
في رزنامات السنوات السابقة..

زيارةً لداخل جسدي. لكائن صغير يسكنني.
كيف لي أن أصف اللقاء الأول. اللمسة الأولى.
النبضة الأولى..

عندما تأمرني الدكتورة بالاستلقاء. وتمنعني
أشواقي إلا أن أرفع رأسي لأسترق النظر لجهاز
السونار عليّ ألمح منك شيئاً..

كانت الشاشة سوداء. تتخللها خيوطٌ
بيضاءً رفيعةً متقطعة. يصعب عليّ أن أميز

منها شيئاً أو أفهم، إلى أن أشارت باصبعها:
هنا هنا، وقلبه ينبض!

يا الله ..

كيف لنا أن نكتب عن الحيوانات الصغيرة
عندما تبدأ بالنبض، عندما تكون قلوبها قد
تشكلت للتو، يا أيها القلب الصغير، يا أيها
القلب الذي لم يمضِ على تخلّقه الكثير، يا
أيها القلب الذي ينبض والجسد لم يتجاوز
حجمه حبة الذرة ولم تتشكل أعضاؤه بعد..
يا أيها القلب الذي أوصيك بأن تنبض بالحب،
كما ينبض لك قلب أمك الآن بالشوق، أوصيك
أن تكون أبيضاً شفافاً نقياً، أوصيك أن تتذكر
دوماً أنك الدليل، فلا تكف يوماً عن أن تنبض،
تنبض وتنبض بالحب والحياة، فالقلوب لا تحيا
بغير الحب..

الأقلام تتلعثم عندما تكتب عن الفرح،
الحبر يخذل الكاتب والكرة تتجمد في النصل
فلا تدور على الصفحات، الكلمات تحوم حول

رأسي وأنا أكتب عنك فلا أستطيع لها اقتناصا.
ليس من السهل أن يحمل الانسان في
جسده قلبين. الأول قديم. ينبض منذ عقدين
من الزمن. والثاني جديد. بدأ لتوه ينبض. وأجمل
ما في الأمر. أنهما ينبضان من أجلك. من أجلك
أنت يا صغيري..

أَرْضٌ طَيِّبَةٌ

كَالأَرْضِ تَحْتَضِنُ البذرة
إِذ جَاءهَا الغَيْثُ
اهتزت وريت
كبرت في ظلماتها حياة
كنت أرى أرحامَ الأمهات
أَرْضٌ طَيِّبَةٌ صَغِيرَةٌ
وَالأَرْضُ رَحِمٌ كَبِيرٌ

أمومة مضاعفة²⁰

أرسلت لي أختي مُداعِبة صورةً لتوأمِ بنات
وكتبت تحتها " نبي جذي " أي: نريد هكذا.
ابتسمتُ وتمنيت لوهلة أن أكون حاملا بتوأم.
بطفلتين جميلتين كاللتين بالصورة. زهرتين
صغيرتين بلباسٍ لطيفٍ تزغ له القلوب قبل
الأبصار. ولكن تداركت أمنيته تلك بسيلٍ من
الأفكار. فتحولت من أمنيةٍ إلى مخاوف. وفي
ارتباكٍ سألت نفسي: ماذا لو كنت حاملا بتوأم!
كيف سأملك أن أوزع الحب بينهما. كيف
سأفرق بين الوجوه وكيف سأستطيع الاحتفاء
بهذه الأمومة المضاعفة وأنا أخوض للمرة الأولى
تجربة الأمومة.

ماذا لو بكيا في الوقت ذاته. من سأحمل.
ومن منهما سينام في حضني. من سأرضع إن
كانا جائعين. كيف سأعرف حين تبدأ حركتهما
في رحمي لمن تلك الركلة ولمن تلك الوخزة.

كيف سيسع بطني لهما وكيف إن كانوا ثلاثة
توائم!.

حين الولادة، هل سأخضع لولادة قيصرية
تضعني تحت سطوة التخدير وتحرمني من
سماع الصرخة الأولى والتنعم بالاحتضان الأول؟
أنا التي أؤمن بأهمية تفرد كل شخص،
واشعر بالغيظ إن شبهني أحدهم بشخص آخر
كيف سأحتمل أن أرى ابنتي أو ابنتي متطابقتين،
متشابهتين ولا يتمايز أحدهما عن الآخر إلا بفرقٍ
بسيط.

كيف سيحظى كلٌّ منهما بحقه من
الرعاية والاهتمام والحب، كيف سأتمكن من
تحقيق العدل بين شخصين وجدا في الوقت
ذاته؟

فكرة مرعبة أن يقع الشخص في حب
شخصين فجأة!

أَكْوَان

أدور في كونٍ كبير
وبداخلي كونٌ صغيرٌ يكبر
أتوق ليوم لقائهما
تراه..
كيف سيكون؟

الحب على طريقة الدمى الروسية

حبُّ يُبذر بداخلك، ينمو بداخلك يكبر
بداخلك، يعيشُ بداخلك زمناً إلى أن يتفرع منك،
لا يمكن أبداً أن يشبه أي حبٍ آخر تلقينه صدفة
على وجه الحياة.

حبُّ يحملينه في جسدك تسعة أشهر
يقاسمك أنفاسك، يجاري دقات قلبك، يسري
دمك في أوردته فيمتزج بدمه. لا يمكن أن يكون
أوثق منه أي حبٍ آخر تربطك به الحياة..

حبُّ لم يكن في يوم، لم تربه في يوم، لم
تلمسيه في يوم، وُجد بوجودك، أتيت أنت به،
بمشيئةٍ إلهيةٍ معجزة خلّفته منك، لا يمكن أن
يفوقه جمالا أي حب تأتي به الحياة..

حبُّ هو الحياة، ينبثق بانبثاقها الجديد،
حياةً جديدةً تنفثينها في الحياة فتضفي
لحياتك حيواتٍ آخر تصبحين كالدمية الروسية.

تحمّل في بطنها دميّةً تحمّل أخرى، حياةً تلو
أخرى أشخاصٌ يخرجون من أشخاصٍ آخرين،
يقفون جنباً إلى جنب مصطفين بأطوالٍ وأعمارٍ
وأشكالٍ متباينة على خارطة الحياة، في حبلٍ من
دماء، من لحمٍ ونبضٍ وشعور، ممتدّ بلا انتهاء..

نور

صرت لا أحب إطفاء الأنوار جميعها حين
أنام. أخشى أن أضيف لظلماتك ظلمةً جديدة.
فيا صغيري المخبوء في ظلماتٍ ثلاث. عليك من
الله سلامٌ ونور ..
عليك من الله سلامٌ ونور

أنوثة مضاعفة²⁰

حزينة كنت، وفي الحمل تضطرب هرمونات
المرأة والمشاعر معها، تتذبذب بين يوم يوم،
وكنت كلما انتابتني نوبة حزن أو بكاء ألود
بالتفكير بك، أخشى أن أثقل قلبك الصغير
بالأحزان، فقد سمعت أن الجنين يتأثر بحزن أمه
بل يبكي لبكائها أيضا، ويا صغيري ستبكيك
الدنيا بما يكفي.

عزائي أنت، سعادتي وسلوتي أنت، أشواقني
المتحفزة للقاء ومحبتني المتزايدة، تغلب
على الحزن بالتفكير بك، وأسأل نفسي لأبدد
ضيقها: كيف أحزن وأنا أنتظر حدثاً رائعاً مثلك؟
واجتمعت علي في هذه الليلة الوحيدة
والأفكار والأحزان، اشتقت لك أكثر وأحسست
بحاجة ملحة لرؤيتك!

قد يبدو الأمر غريباً، دخلت على الدكتورة
في قسم الطوارئ وطلبت منها تحويلاً للسونار،

أي مزاجٍ هذا وأي امرأة غريبة كنت. العاشرة ليلاً
والكويت تحتفل بعيدها الوطني. المستشفى
خاو كقصر أشباح. ودهشةٌ ترتسم على وجه
الدكتورة

نزلت قسم السونار وإذا به أشد خواءً.
حتى الموظفين لم أرَ منهم أحد. أصبحت
أجوب ممراته وأطرق أبوابه إلى أن أجابني
ممرضة تفرك من عينيها النوم. قادتني للغرفة
واستلقيت على السرير في الظلمة. قبالة
الشاشة الكبيرة. كأنسانٍ وحيد. ارتاد السينما
بمفرده قتلاً للضجر..

لم أكن أعرف بعد جنس الجنين. وتمنيت
لو أنني أبقى الأمر سراً على نفسي لحين الولادة.
لكن قلائل هن النساء اللاتي يصمدن أمام إغواء
الفضول لمعرفة ما يسكن بداخلهن. أذكرُّ هو
أم أنثي.

الشاشة في غرفة السونار أكبر وأوضح مما
هي عليه في غرفة المراجعة العادية. طلبت من

الدكتورة أن تريني عن قرب أعضاء الجنين. يديه الصغيرتين. رجليه ورأسه وقلبه. كان يحرك يديه وكأنه يلوح لي. وكأنه يمدهما للمسّي. وكأنه يدرك بأنني أراقبه..

بعدها سألتها عن جنسه. فأجابت بأن الوقت مبكرٌ جداً على الجزم. لكنه يكاد يكون أنثى. قالتها وكنت موقنة قبل أن أسأل بأنها أنثى. كنت أشعر دوماً أن طفلي الأول سيكون بنتاً. كنت واثقة بداخلي من هذا الأمر قبل أن أتزوج حتى!

وحين تأكدت في المرة التالية أنك أنثى. أحسست بأن أنوثتي قد تضاعفت. فهل هناك أجمل من جسدٍ تسكنه أنثيان؟

وحدة

أجملُ احساسٍ يهبه الجنين لأمه. أنها لا
تشعر أبداً بالوحدة. دائما هناك من يشاطرها
القرب والوجود..

نحن نحمل طفلاً

تلاأت عيناى وابتسمت بشدة حين سمعت لأول مرة التعبير الانجليزي الذي يصف فيه الزوج

We are pregnant بحوله الحامل بقوله

هل لكم أن تتخيلوا مدى روعة هذا التعبير ورقته. ومدى السرور الذي يبثه في قلب الزوجة؟ أن يقول الزوج للآخرين نحن نحمل طفلاً. نحن سويا نأتي بهذه الروح للحياة. أنا أستشعر لحظات الألم والفرح مع زوجتي. أنا أترقب مثلها وكزة الطفل الأولى. أتحسس بطنها المتكور لعل الطفل بداخله يلقي علي التحية. أبتاع معها ثياب الحمل. أشاركها التجهيز للمولود وأقدر كل المشقة التي تتكبتها في سبيل أن تهبني كلمة - بابا -

الأشواق

ليس من قبيل الصدفة أن لا تختلف كلمة
الأشواق عن كلمة الأشواك إلا بحرفٍ واحد. إلا
بخاتمةٍ لا يدرك السامع معنى الكلمة قبل بلوغها.
عندما تكون في البداية تقفز بشفتيك من حرفٍ
لحرف ستكون غير متأكداً أي الكلمتين ستلفظ!
هذا التشابه ليس من قبيل الصدفة. لغتنا
لا تشكل الحروف أو تصوغ الكلمات اعتباطاً.
كانت تدرك تماماً بأن الأشواق كالأشواك. لا
تفتأ تخزك إن مسستها أو اقتربت منها. فكيف
بك إن حملتها بداخلك. تخيل لو أنك وضعت
قنفذاً أو نباتاً شوكياً في قلبك. هل ستهنأ؟ هل
ستنسى أنك قد وضعته؟ أم أنه سيذكرك كل
لحظةٍ بوجوده من خلال وخزةٍ هنا وأخرى هناك.
هكذا هي الأشواق تماماً. كومة شوكية. لن
تدرك خطورتها وأنت تشاهدها من بعيد. ما إن
تحملها. ستتشبث بك. ستعلق ولن تستطيع
منها فكاكاً.

المحب في أشواقه قد يسلى إن ابتعد
المحبوب عنه. ولكن الحامل كيف تسلى وهي
تحمل أشواقها في بطنها!

لذلك أنا لا ألوم الشعراء إذ امتلأت دواوينهم
بقصائد اللوعة والشوق للمحبوبة. لأنهم لم
يجربوا شوق الحامل لاحتمضان طفلها. ولكن ألوم
النساء اللاتي جفت أقلامهن عن هذا الحديث.
وافتقر الأدب لكتب تحكي حكاية العشق الأزلي
بين الحامل وجنينها. أو حتى لبضع قصائد
ونصوص.

في كل ليلة. بينما أحتضن بداخلي الجسد
الصغير أأكل أمام هذا السؤال: أينام من أبقى
الشوق عيناه مشرعتين على السماء؟ تحتضن
الوسادة رأسي ترقبا للنوم وتظل عيناى تبحلقتان
في المستقبل. تحبكان الأشواق بخيوط اللهفة.
تبحثان عن ملامحك وتخيّلان ضحكك الأولى..
لا أدري إن كنت حينها تغطين في نومك أو
أن عقلك الصغير قد أصبح مدارا لأسئلة تشبه

أسئلتني. تراها كيف تبدو ماما. أصوتها ذاته هو
الذي يبلغني من الداخل. أحضنها دافئاً كرحمها
الذي تحتويني به. أسنظل دوماً معا كما نحن الآن؟
يا لتلك الأفكار والأشواق . أنا أقر بأنني ضعيفة
جداً أمامها. أخزّ وأذعن أمام أول تلويحةٍ منها.
استسلم لها لتفودني لحلولٍ تطرحها هي وتطرح
إرادتي معها. لأنساق وراءها دونما تفكير كالكتابة
عنيك. الحديث معك. أو أقوى الإيمان وهو زيارتك
والتلصص عليك في الشاشة السوداء. أفتحم
عزلتك. اسبح معك في صومعتك في عالمك
الداخلي وأستمع بوضوحٍ لدقات قلبك. انتشي
وأنا أشاهد حركاتك. كم تضحكيني حين تقفزين.
لماذا أشعر بأنك تعلمين بوجودي هنا وبأني أراك.
اشعر بأنك كالأطفال الأشقياء قومين بالاستعراض
والشقلبة. وزنك اليوم لا يتجاوز الجرامات المئة
والعشرون. ولكنك رائعة جداً. أحببت أصابعك
الخمسة التي بدت بكل وضوح على شاشة السونار
وكانما تحبيني وتبلغني سلاماً..

الوحام

أشْتاقُ لصباحٍ من صباحاتي القديمة،
توقضني فيه الشمس فور بزوغها لأشرق معها،
نحتسي القهوة في مقهىٍ معلقٍ على غيمة،
أكتب، أنجز أفكار وأطمئن على سلامة الكون.

سئمتُ الصباحات التي يكون فيها
الاستيقاظ من النوم هو أصعب مافي الحياة!
هو جهادٌ جهيد، عقابٌ منزلٌ من السماء وعناءٌ
لاحد له!

منذ أكثر من شهر لم أصح قبل انتهاء
الظهيرة، أصبحت نائمة مرهقة طوال اليوم،
لا أكاد أغادر فراشي حتى أبحث عن نوم جديد،
لم أعد أملك رأساً، بل بطيخةً ثقيلة! تجعلني
أترنح يمنةً ويسرى كلما هممت بمغادرة السرير
والوقوف على قدمي.

أصبح الاستيقاظ همّاً، والصبح رديفاً
لنوبات الصداع والاستفراغ، تلك أعراض لو أردت

لها تفسيرا لن أجد. ولو أردت منها عاصما
فأيضا لن أجد. ذاك هو الوحام. وما أدراك ما
الوحام!

كابوسٌ مفزع. كاد يلتهم كل أحلامي الوردية
في الحمل والأمومة. فوالله لو لم تعاني الأم في
حياتها سوى أعراض الوحام لكفاها بأن تكون
الجنة تحت قدميها!

البحث عن اللزانيا

أفهم معنى أن يجلس الشخص منفرداً في مقهى هادئ، يحتسي قهوته ويكتب. أما أن يجلس في مطعم إيطالي يأكل اللزانيا ويكتب فهذه والله من شطحات الوحام وليست من شطحاتي!

عندما يرخي الوحام قليلاً من قبضته على جسده سيدخلك في مرحلة جديدة. وهي مرحلة اشتهاة أصناف معينة من الطعام. أصنافاً بعينها. إن لم تتوافر فلا خير في الحياة!

وكنت قد سمعت عن نساءٍ اشتھين أكل الصابون والطباشير وغيرها من الغرائب. أما أنا فحمداً لله لم اشتھي إلا اللزانيا. التي طفت أرجاء المطاعم الإيطالية في الكويت بحثاً عن واحدة ترضيني وتشبع نهمي لها. إلى أن عثرت على مبتغاي.

المشكلة لم تنته عند أكلها للمرة الأولى

أو الثانية أو السادسة حتى. المشكلة بدأت حين
كنت أستيقظ في الثامنة صباحاً واشتهيها!
فيا معاشر الرجال. رفقاً بنسائكم إن
اشتھين ما تعجزون عن توفيره. ووفروه!

فهم آخر للحب

يقولون دوماً بأن الحب هو اختلاج الروح بالروح وانقسامها على جسدين، لكن ماذا لو كان جسداً واحداً تسكنه روحان، أدركت ذلك وأنا أرى ثمرة حبك تسكن جسدي وتنمو بداخلي، وإذا بي أحمل روحي وشيئاً من روحك، روحين تحابتا، اتحدتا وأثمرتا عن روحٍ جديدة ستنبثق في جسدٍ جديد..

هكذا كنت أرى الجسد الصغير الذي يتشكل في جسدي، طفلاً يحمل روحي وروحك

ملتفتان بحبلٍ سري

لوهلةٍ ما، تبدو الحياة وكأنها لا شيء،
وكان الكرة الأرضية قد تلاشت لتنمو في بطني
المتكور من جديد..

حين أخلو بك في سكينة الليل، بين جدرانٍ
أربع تلفنا إضاءة خافته والدنيا حولنا في صخب،
لاهثةً مزدحمة، أبثك شوقي وحبّي غير عابئةٍ
بأحدٍ سواك، كأن لا أحد سواك كان يوماً.
ألتحف بأغطيةٍ ثلاث، وأشد حولنا حبلنا
السري وننام ملتصقتين، ملتصقتين جدا إلى
حدٍ تسكن إحدانا الأخرى..

وحين يغشانا الصباح، أصحو بشوقٍ جديدٍ
لك، أترقب وكزتك الأولى لأقول: صباح الخير
صباحك فرحٌ يا صغيرة، أدرك بأنك قد استيقظت
لتوك، وأنتك تفركين عينيك ببديك الصغيرتين
لتزichi عنهما بقايا الأحلام.

ولكني أتساءل حينها، أتراه نور الصباح
بلغك من بطني أم من عينيّ؟

أخواتي في الأمومة

في السوق. في الجامعة. في المشفى أو على رصيفٍ ما. عندما أرى الحوامل أشعر بأنهن أخواتي في الأمومة. وتوائمي اللاتي يشبهنني إلى حدٍ كبير. أشعر بالتضامن معهن. التآخي والانجذاب وكأئنا نحمل الطفل ذاته. الفرح ذاته. كيف لا ونحن نشترك بأن نحمل في أحشائنا الحياة..

أسير يسبقني بطني الممتد أمامي و على الجهة المقابلة ألمح إحداهن تسير بالوصف ذاته. فابتسم دون شعورٍ مني أو سبقٍ لإصرار. ابتسم لشبيهتي التي لا أعرفها. ولكنني أعرف تماما ما يدور في ذهنها ورحمها. ابتسم لها لأخبرها بأنني سعيدةٌ بحملي وبحملها. من أجلي ومن أجلها. فتبتسم بدورها ونمضي. كلانا تغيبُ في الزحام.

شبيهاتي اللاتي تثيرني بطونهن. إذ تبدو

كصناديق مملأى بالأسرار تكتنزُ فيها مشاعرٌ
وأحاسيسٌ كثيرة. بودي لو تبادلت معهن الحديث،
الشغف والمخاوف والأشواق..

فستان

الفستان الذي كان فضفاضاً أسفل الخصر
صار ضيقاً
الفستان..
امتلاً بطفل

اللغة الأولى

كلما افتقدتك استلقيت على بطني لأضيق عليك، لأجبرك على الحركة ولأحاول إيقاظك من كسلك الطويل، أوكذك لأخبرك بأنني قد اشتقت إليك، لغتنا السرية هي لغة اللمس، اللغة الأولى التي تحدثيني بها، التي تؤكد لي من خلالها وجودك، لو تعلمين كم اعتدت عليك بداخلي، لو تعلمين كم أخاف أن تخرجين فننفضل، أحببت وجودك اللصيق فيّ، الراسخ في عمقي والممتد بجسدي.

لا أشعر بأنني أتقبل فكرة خروجك من رحمي ومغادرتك إياي، أنا التي تتبعت تخلقك بداخلي، راقبتك وأنت تكبرين شيئاً فشيئاً منذ أن كنت مضعفة غضة بالكاد بدأت تنبض، راقبت بزوغ أجزاءك الصغيرة عضوا عضوا، جسدي وهو يتشكل إلى أن أتم الله خلقك بإذنه.

لغتنا إذ تخبئين بداخلي، لغة العشاق

الذين يلتقون تحت أستار الليل. لغة اللمس التي
تقولين من خلالها أولى كلماتك في رحمتي. لغة
رقيقة كالهمس خفية كالسر وعظيمة كالحب.
فيا من تدقين الباب خلف جدرانٍ ثلاثة .
ليتني كنت أملك لك الاجابة !

الاسم المفقود

الصباحات الجميلة لا تستجق منا اضاعتها
على الوسادة! لذلك أجلس الآن بجانب نافذة
كبيرة ينفرش تحتها البحر كسجادة فارسية
صنعت من حرير فيروزية اللون، ساطع عليها
نور الشمس، كلما هب نسيمٌ خلتها تموج.

أتناول الافطار في مطعمٍ باريسى واحتسى
القهوة الفرنسية التي يطفو على سطحها
وجهك الصغير، وجهك الذي لا تفارقني خيالاته
أينما حللت.

يعج المطعم بالزائرات حين الافطار يجلسن
في مجموعاتٍ كبيرة وأجلس أنا في ركنٍ قصي،
أبدو وحيدة في أعينهن إلا أنني أقول لهن في سري
لستُ وحيدةٌ أبدا، ألا ترين؟ معي كتابٌ ودفترٌ وقلم،
وبداخلي طفل! إلزمن الهدوء فأنا أكتب من أجل
الأنوثة كما تثرثن أنتن الآن حولها، إلا أن لحديثكن
صوتٌ في الهواء ولحديثي آثارٌ على الورق.

معي كتاب - أوراق الورد - تحفة الرافعي
ورائعته في الحب والخير والجمال. ذاك الكتاب
الذي كلما قرأته شعرت بأنها المرة الأولى التي
تقرؤه فيها لفرط دهشتك من معانيه واستلاب
لغته البديعة لروحك. أقرؤه هذه المرة لأبحث
في مفرداته الفصيحة عن اسم لطفلي. أريد
لابنتي أن تكون مميزة في كل شيء. أريد لها
اسما مميّزا. فصيحا. ضاريا جذوره في عمق
اللغة العربية. مشتقا من آي القرآن. أو فصيح
قول العرب. بحثت دون جدوى. لوهلة شعرت
بالخذلان وأسندت ظهري على الكرسي بأسى..
يا لغتي العربية الفسيحة. يا التي
احتضنتني لسنوات في ميدان كلمك الرحب.
مالك تضيقين وتضيقين. ما بال كلماتك تخبو
وتتلاشى. مالي لا أكاد أجد بين أحرفك أحرفا
تجتمع فتصوغ اسما لابنتي!؟

صلاة الصغار

عندما أرفع يدي في الصلاة. ارفعي معي
يديك ورددي خلف دعواتي: آمين ..
أرجوك ادعي أن يحفظك الله. فأنت صغيرة
والصغار دعاؤهم لا يرد. أمنياتهم لا تصطدم
بسوءاتهم فتقف. الصغار أنقياء. لم يدنسوا
بعد بدنس الخطايا. لو أقسموا على الله لأبرهم.
أمنياتهم دوما ساذجة ونقية وصادقة. لذلك لا
يردها أبدا.

ادعي يا صغيرتي. ادعي وأنت تقفين معي
على سجادة الصلاة. تقفين بداخلي بين يدي
الله. ادعي بأن نقف ذات يوم. جنبا إلى جنب
وبسجادتين..

صباحٌ أهديه لروحك

أشتاقُ لصباحٍ أطل فيه في عَيْنَيْكَ حيث
تولدُ شمسانِ صغيرتان. فتوهب الحياة نوراً
جديداً ويكون الصبح أجمل.

أشتاقُ لصباحٍ أدرس فيه وجهي فور
استيقاظي في سريرك الصغير. أستنشق رائحة
البودر. أقبل الوجنتين الطريتين. وأشد اللحاف
على جسدك لتكمل الأحلام.

أشتاقُ لصباحٍ لا توقظني فيه العصافير
أو جرس المنبه أو جلبة الجيران. بل بكائك
المتهدج. شوقك لاحتضاني وحاجتك للحليب .
أشتاقُ لصباحٍ أحتسي فيه قهوتي. أقرأ
الصحيفة أو صفحات من كتاب. بينما تغطين
في نومك العميق. بين دقيقةٍ وأخرى ألتفت إليك.
أطمئن لوجودك وابتسم إذ تشاركيني الحياة.

أشتاقُ لصباحٍ فيه وجهك هو شمسي.
صوتك هو تغريد عصفوري. ثغرك هو نفتح

بستاني، عينكِ هما نافذتاي اللتان استجدي
منهما النور وأنتِ، أنتِ الصباح حين إذ .

ترانيم حب وتراتيلُ شوق

قدماها الصغيرتان لهما وقعٌ موسيقي وهي
ترتطم بالأرض حين تجري حولي حافية، نشاغبني
وقت الدراسة، تطل تارة بوجهها المستدير وشعرها
اللولبي من خلف الصفحات، وتارة تضحك وهي
تخبئ جسدها خلف القلم! أريد أن أدرس ولكنها
تلح علي بدلالٍ لا أقوى مقاومته، أني أشتاقك
فاكتبي لي شيئاً

حسنا حسنا يا صغيرة، كلي لكِ سمعٌ
وطاعة، فافتحي قلبكِ لأسكبَ فيه ترانيمَ حبٍ
وتراتيلَ شوق

إن الأشواق يا حبيبتي حين تبلغ مبلغاً عظيماً
في القلبِ تمتزج بدمائه فيصعبُ كتمانها،
ويستحيل الفرار من الانغماس في تجلياتها،
فكيف بأشواق الأم لاحتضان ابنتها، امتدادها،
روحها التي تخلقت من دماؤها ولحمها ونبضاتها
لم نلتقي بعد، ولكن اللقاء بإذن الله وشيك،
وها أنا بانتظار بريق عينيكِ وابتنسامِ ثغركِ.

سانتظر إغفاءتك الأولى على صدري وأنتِ
ملتفةً بمهدٍ ابيض يشد جسدك إلى جسدي،
إلى حيث موطنك الأول، موطنك الدائم، إلى حيث
كنت تسكنين بهدوئك وسلامك بعيدا عن الكون
وقريبةً مني، قريبة إلى حد الالتصاق والامتزاج.

أعدك حين تأتين، بأن تكوني أجمل فتاة في
هذا العالم، أكثرهن رقةً وعذوبةً وصفاءا، وأن
تكوني الأحب إلى قلبي، حيث لا يقوى حينها أحد
منازعتك تلك المكانة في حياتي، حتى أنني صرت
أخشى أن أشغل بك عن الناس قبل مجيئك.

أريد أن أقبل قدميك الصغيرتين، المكتنزتين
كأقدام دميةٍ اسفنجية، أريد أن أحيطهما
بخلخالين من أزهار الفل وأن أغرس في أذنيك
اقراطَ الياسمين، بعد أن ننتهي من طقوس
الحمام الدافئ وبعد أن أدلك جسدك الغض بزيت
الأطفال العابق برائحة النقاء . أريد أن أدغدغك
بلطف وأنا أدس البودرة في ثنايا جسدك فتحيل
ضحكاتك السكون لفرح وصخب.

سنتسوق معاً من أجلك، كل فساتينك

ستكون مميزة، جميلة، رقيقة، لتناسب أميرةً
في مقامك، ساصنعها لك من النور، مزركشة
بالحب، ومحاطة بكشكشات الدانتيل، ستعتمرين
قبعاتٍ مرصعة بحبات اللؤلؤ والزهور وسترتدين
أحذيةً بأذخه الأنوثة بلمساتٍ طفولية تليقُ بذوقك
الرفيع.

حين يجيئ رمضان، ساخضب كفك الصغير
بالحناء، وشعرك الطويل كذلك، سابخر ثوبك
العربي بالبخور الذي تحبين وسأرتدي ثوبا مثله،
سنكون جميلتين جداً، أراني فيك سيدةً صغيرة،
وترين بي نفسك حين تكبرين.

سأسرقك من مطبخك البلاستيكي وأوانيك
الملونة، لادخلك المطبخ الحقيقي للمرة الأولى،
سأتركك تبحثين في الأدراج والدواليب عن النكهات
والروائح الطيبة.

سنصنع معاً قوالب الكعك وستفوح رائحته
الشهية في أرجاء منزلنا، سنجعلها تعتمر قبعاتٍ
من الكريمة الهشة ونوكئ على قمتها كرزة حمراء
لذيذة كفمك الصغير.

سأضع في غرفتك مكتبة صغيرة منها
تطين على الحياة. ابتداءً من التهام الصور
بعينيكِ المشرعتين على العالم بدهشة، إلى أن
نتعرف معاً على الأحرف والكلمات. ساقراً لكِ في
كل ليلة حكايةً على ضوءِ قلبك، قبل أن تسرقكِ
مني الأحلام.

سنقرأ عن كل شيء، عن الماضي
والمستقبل، عن الشعوب والبلدان، عن الحيوانات
وجسم الانسان، عن الرسل والانبياء، عن الاخلاق
والفضيلة، عن كل شيء.

كلما سألتني عن شيء سأجيبك بكتابٍ أو
حكاية، حتى يفتح فضولك المعرفي على هذا
العالم الفسيح.

سأدعكِ تتسلقين مكتبتني بحرية، تختارين
منها ما يحلو لكِ من الكتب وتنهلين من منابعها
كل مفيد.

سنتعلم معاً اللغات، سأحرص أولاً أن تتقني
العربية الصافية الفصحى، أن تكوني بليغةً منذ

الصغر تحفظين القرآن فيحفظ لسانك وقلبك،
ترددين الأبيات الشعرية وتتقنين إخراج الحروف من
مخارجها.

سأعلمك لغةً أخرى جميلة، وسأضحك في
الصباح حين تقولين لي (بووونجول ماما مع
تشديدك على الجيم لتبدو صحيحة واستبدال
الراء المعقدة باللام السهلة، سألتهم حينها
شفتيك اللتين تمدينهما للأمام بشدة وتمدين
معهما التحية.

سأعلمك كيف ينبغي للحياة أن تعاش
بحب، وأن تمارس باحساس، وأن تغمر بالسعادة.
سأعلمك كيف تحيلين أحزانك دروساً وأفراحك
ذكريات لا تموت.

سأعلمك كيف تجدين اللذة في العفو،
والفرح في العطاء والجمال في الخير والحب
في القلوب، كيف تحيلين العالم لجنة فسيحة
ملؤها ألوانٌ وبهجة بلمسة عفوية من قلبك.
سألبسك فستاناً إسبانياً منفوشاً ومشكشاً،
كذاك الذي ابتعته من حوارى قرطبة، سأمسك

بيديك وأعلمك الرقصات المجنونة على أنغام
الفلامنكو

سأبتاع لك مسرحاً للدمى. تختبئين خلفه
وتؤدين لي المسرحية بيدك المكتسبتين دُمى
قماشية. ساترك لك حرية كتابة النص وأداءه.
سأكتفم ضحكاتي على نبرات صوتك التي تتغير
مع تغير الدور . وسأنفجر ضاحكة حين تقلدين
ماما وبابا بكل عفوية. ستكونين حينها لذيقبيدة
كالفراولة التي اقتنطفت في موسم الحصاد.

سأكون سعيدة وأنا أرى ثقتك في نفسك
تتزايد. وسعادتك بنجاحاتك تكبر. سأحتفظ لك
بلوحتك الأولى. صورة خطوتك الأولى. كلمتك
الأولى. قصتك الأولى. شهادتك الدراسية. أعمالك
اليدوية. وكل ماتصنعين. سنزين جدران غرفتك
بلوحاتك. ونصنع معاً صنابيراً لحفظ أغراضك.

سأعلمك كيف تصنعين لنفسك أشياء
جميلة. لا يشاركك فيها احد ولا تجدين مثلها
بالسوق. قلادة لجديك اللؤلؤي. اسواراً لمعصمك
الدقيق. ولمسات تضيفينها لثيابك.

حين يكونُ الجوّ صحواً. سنسيرُ معاً على
الشاطيءِ، وسأغني لكِ بشقاوةٍ (شاييف البحر
شوكبير . كبر البحر بحبك سنتنزه في حديقة
ما بصحبة كتاب. سنقرأً وسنثرثر. وحين يحين
المطر في ليالي الشتاء أو صباحاته. سنحتسي
القهوة خلف النافذة ونستمع لفيروز.

عندما تنامين. لن أهرب لغرفتي وأترك
وحيدة. سأتمدّد بجانبك. سأضع وجهي قبالة
وجهك وأأمل قسماتك. ذلك الانف الصغير البارز
بين وجنتين مكنزتين. والشفة المفتوحة بصورة
رائعة عندما تنامين. سأحتضنك واشتم رائحتك
بشدة. لأنك مثلي تماماً. تدركين كم أن فترة النوم
طويلة. وكم سأشتاق لكِ إلى أن يحين الصباح.
سأكون سعيدة جداً وأنا أرقب السنوات
تتراكم في جسدك. وانت تتحولين من طفلة
إلى امرأة بقلب طفلة. حينها سأشتاق بشدة
لاحتضان ابنتك

ستكون مثلك. رائعة. وستكونين مثلي. أمماً
بقلبٍ محبٍ..

انكهمشت الحياة، وتمددت بك

فجأة..

تفقد كل الوجوه والأمور والأشياء المهمة
أهميتها. فجأة يتقلص العالم وتنكمش الحياة
كأنها لا تحوي سواك. فجأة تُختزل المشاعر في
ثلاثة أحرف وأجدني لا أجيد سوى - الشوق -
وأنساءل. تراها كيف كانت قبلك الحياة!

ماء السماء

لأول مرة نسيرُ معاً تحت المطر. حتى وإن
كنتِ لا ترينه. لا تشعرين به ولا تلمسينه. إلا
أنني كنت ممتلئاً باحساسي بك. وفرحي بأنك
معي..

لا أملك مظلة. ملابسِي مبتلةٌ تماما.
ومظلتك رحمي. يحميك من المطر والبلل والأذى.
عندما تكبرين. سأبتاع لك مظلةً صغيرة.
من فوقها ينهمر ماء السماء إذ نسير جنبا إلى
جنب في الأمسيات الشتوية المطيرة. يلتف كلُّ
منا بكنزةٍ ثقيلة. ونتشبث بأيدي بعضنا البعض.
أما حين تمطر في الأجواء الدافئة فسأخلع
ثيابكِ عنكِ. سأترك جسدكِ الصغير يرتوي من
ماء السماء. وهل أظهر من ماء السماء ماء؟
سنجمع المطر في كؤوس. سنشرع أفواهنا
لنبتلع ما نستطيع من قطراته. وسنلهو كثيرا.
سترين كم أن المطر يعيد أمك طفلة..

منتصف الحلم

منتصف الطريق منتصف حلم. يكاد نوره
يبزغ فيضيء..

أتممت اليوم أسبوعي العشرين من الحمل،
أقف معك ووراءنا تقف أربعون يوما ومئة، وأمامنا
تصطف مثلها. ملئى تلك التي رحلت بالأشواق
والمشاعر والترقب، وبمثلها حبلى التي في
الطريق.

المنتصف حالةٌ وسطى بين الكثير
والقليل. حين تبلغه ستكون إما بين كثيرين أو
بين قليلين. إن كنت بين كثيرين فعزأؤك أنك قد
قطعت من الطريق الكثير. وإن كنت بين قليلين
فعزأؤك أنه تبقى أمامك القليل.

أنا. أختار أن أكون في الحالة الأولى. بين
كثيرين. كثيرين جدا. فالحمل مرحلة لا يمكن
اختصارها بأيام قليلة. ولا يمكن أن يتبقى منها
القليل. هي حياةٌ بذاتها قائمة. تعيشها المرأة

مرة تلو مرة وكأنها مرة أولى.
الحملُ حياةٌ ذات وجهين، حميمية وجميلة
تحمل في كل شهر فرح جديد يجعلك لا تودين
الانتهاء منها، وطويلةٌ بطيئة، تحول بينك وبين
احتضان طفلك، فكأنها تفرحك بتخبئته داخلك
وتغيظك بالأمر ذاته!

إجهاض

لا أفهم الأحران، أراها ضبابية. مبهمة.
مشوشة. لا أستطيع التعامل معها بحرفية.
أحزاني عادةً ما أراها ساذجة. أهزئ منها وأمضي
في طريق لا تتبعني به كالظل الفضولي. أما
أحزان الآخرين فتركنني، تخيفني وتدفعني
للتصاغر أمام قلبي..

علمت بأن صديقتي فقدت جنينها بعد
خمسة أشهرٍ من الحمل. كانت للتو تحفل
بحركاته الأولى وتبتاع له الثياب الصغيرة. وقبل
شهر خسرت قريبةً لي جنينها في الوقت الذي
كانت تستعد فيه لاستقباله. في شهره التاسع
قُبضت روحه. روحه التي لم تتلمس شيئاً بعد
من الدنيا سوى دفئ جسدها وحنان لمساتها
التي كانت تغطي بطنها كل ليلة.

أخبارٌ كتلك كانت تخرسني. تخطفُ فرحة
الحمل من قلبي وتملأه خوفاً وحزناً. أنا التي

أصبحو كل يوم فقط لأتأكد من أن الجنين مازال
حيًا. مازال يتحرك ولم تخطفه على غفلةٍ بدِّ
المنون.

فكرة خسارة الجنين في أي لحظة كانت
هاجسا يخنقني. زاده أن ابنتي كانت كسولة جدا
بالكاد تتحرك.

لا يمكنني تصور احساس المرأة التي تفقد
جنينها الأول في أي شهرٍ كان بعدما عرفت
بوجوده. أن تفقد الحياة التي بدأت تدب بداخلها.
الحياة التي لطالما تخيلتها وتحسست وجودها.
كيف لها أن تدرك بأن صغيرها لم يعد
سوى كتلة لحم وبقايا دماء. سترمى في القمامة.
أن الحبل السري الذي كان يربطهما قد انفصل
قبل أن يتحول لحياة. وكيف لها أن تدرك بأن
طفلها الذي غادرها لن تضمه بحضنها. بل
ستضمه حفرة مظلمة يبات فيها وحيدا حيث
لا ضرعٌ ينهل منه ولا صدرٌ يغفو على دفتيه.
التي تجهض في حملها الثاني أو الثالث

لن تعاني بالطبع كمن تجهض في حملها
الأول . ستعود للمنزل تحمل بعضاً من الخيبة
ولكن ستضم لصدرها طفلاً أو اثنين، أما التي
الأخرى فستعود بخيبة متعاضمة، بأحلام أمومة
متكسرة. ويتوجس من عدم القدرة على الحمل
من جديد. سيكون حملها القادم تسعة أشهر
من الخوف والقلق.

جعلني الأمر هذا أعيد ترتيب مشاعري،
جعلني أعظم قدر النساء اللاتي عانين في
سبيل الأمومة ما لم تعانيه الأخريات، الأمومة
التي توهجت في قلب المرأة ولكننا لم نتوج
بطفل تبدو أعظم، أشدّ ألماً وأجلاً، تستحق
أن تنحني أمامها كل امرأة من الله عليها بأن
جعلها أما.

نحن في الحقيقة لا نختار أقدارنا. ولا النعم
التي وهبها لنا الله دون سوانا. لكننا نستطيع
أن نختار الإحساس بقيمتها، والإحساس بالآخرين
الذين حرموا منها.

عودة

الجنين إذ يركل بقوةٍ رحم أمه، يستعجل
الحياة خارجه، لا يدرك بأنه مرارا سيتمنى العودة
له..

متجرٌ للفرح

عيناى كومتا بهجة، أزاغهما الفرح، تتقلبان
بين الفساتين الصغيرة وملابس الأطفال كما
يليق بعينتي أم تبتاع ثياب طفلها الأول.

كأنما أتجول في الجنة، عن يميني فساتينٌ
جُدٌ صغيرة للرضيعات، طولها لا يتجاوز شبرا
ونصف، تمتلئ بالكشاكش والشرائط وقطع
الدانتيل المزموم، تبدو ككعكاتٍ لذيذةٍ تتدلى
من الحائط، وعن يساري بيجاماتٌ بيضاءٌ وزهرية
وبألوانٍ عديدةٍ زاهية، فوقها قبعاتٌ قطنية
وبجانبها ألحفةٌ وأغطيةٌ بذات الألوان والتطاريز
والتفاصيل الرقيقة.

ركنٌ لمستلزمات الحمام، أحواضٌ بلاستيكية
كأنما هي للدمى، مناشفٌ وقطعٌ صابون وعبواتٌ
بودر، فناني العطر برائحة الطفولة وصورةٌ على
الحائط لأم تحمم رضيعها بفرح.

أسرةٌ مغطاةٌ بالدانتيل، سلالٌ من القش

لحملِ الرضيع الذي سيبدو بداخلها كطفلٍ ريفي
مبطنةً بأقمشةٍ مُبكرة، والألعابُ الراقصة على
موسيقى موزارت تلتفُّ فوق السرير الخشبي.
عالمٌ صغيرٌ جداً، تأتي إليه الأمهات فتُسلم
قلوبهن. كما تُسلم قلوب الفتيات الصغيرات
حين يرتدن المناجر لابتئاعِ الدمى ومستلزماتها .
ذهبت وزوجي نبتاع ثياب طفلتنا المنتظرة.
وإذ بي أعود طفل

مشغلٌ صغيرٌ²⁰

على طريقة نساء الأرياف صرت أفضي
صباحاتي أمام مكنة الخياطة. أحتسي الشاي
وأخيط بعض الألحفة والشراشف احتفاءً
بقدومك، كنت قد حولت غرفتي لمشغلٍ صغيرٍ
هنا سلة قش مليئة بشرائط الحرير الدبابيس،
قطع الدانتيل وبعض قطع التور المشغولة
بتطاريز بديعة.

هناك على الطاولة تقف المكنة، وأمامها
كرسيٌّ خشبيٌّ بمسندٍ قطنيٍّ أبيض ترتسم عليه
أزهاراً تصنع منه ربيعاً. وعلى الأرض كنت أفرش
الأقمشة وأبدأ بالتفصيل وتثبيت بعضها على
بعض قبل الشروع بالخياطة بينما تغني شادية
: يا رجلّي ساعدي إديّا، وانتِ يا مكنة بسرعة
شويّة .

أردت أن أصنع لكِ أشياءً جميلة، أصنعها
بحبٍ شديد، أشياءً لن تجدي مثلها في السوق

ولن يشاركك أحداً باقتنائها.

حين تكبرين يا صغيرتي، ستدركين بأن
الأشياء التي نصنعها بأيدينا دوماً أجمل، وإن
كانت غير متقنة إلا أن فيها ستُختزل الكثير
من المشاعر واللحظات السعيدة.

انشطار

الولادة تعني انقسام المرأة لشخصين. الأول صغيرٌ بحجمه إلا أنه يدور في فلكه الخاص. يتمحور حول ذاته وكأن الكون رحمٌ كبير مسخرٌ لخدمته واحتواءه.

والثاني هو ذاك الرحم المسخر له. كونه الموجود لأجله. أمه..

يريكني هذا الأمر بشدة. بقدر ما تريكني الأيام العشر المتبقية على موعد الولادة تريكني فكرة حضورك الوشيك. فكرة تضاعفي. تحولي من شخصٍ واحدٍ إلى شخصين. تريكني فكرة انبثاق الجسد من الجسد. وانشطار الروح..

الموعد الأخير

ما بين نهايةٍ وبدايةٍ أقف، أ ستحضر
الذكريات وأتلو على قلبي بعض أمنياته القديمة.
إذ تبدو لي الأيام الأخيرة من الحمل وكأنها حياة
لا إلى الحياة السابقة ولا إلى الحياة المقبلة.
هي أيامي الأخيرة مع نفسي وأنا في جسدٍ واحد.
لم يبقَ الكثير ليغادرني بضعٌ مني ويستقل
بجسدٍ خاص..

أقل من أسبوع. هذا هو الزمن الذي يفصلني
عن موعد الولادة. وبالأحرى، فإن كل دقيقة تمر
من هذه الأيام المتبقية مؤهلة لأن تكون موعداً
للولادة!

أجلس على كرسي الانتظار في العيادة
لحضور الموعد الأخير وعلى كراسي الانتظار
في عيادة النساء يتفاوت الانتظار في أعينهن.
ما بين الوقت المتبقي للدخول على الطبيب
والوقت المتبقي للخروج من غرفة الولادة!

أراقب أعينهن وبطونهن. البطون التي تكاد
تقذف الحياة التي بداخلها لفرط ما تضخمت.
والبطون الخاوية التي ترجو تخلق حياة ما فيها.
تملاً ضمورها وتحيله امتلاءً. العيون التي أنهكها
الحمل والعيون التي أنهكها انتظاره..

إلى أن حان موعدي. دخلت على دكتورتي
مستبشرة بعودتها من السفر قبل ولادتي إلا أنني
لم أغادرها بذات الفرح! حيث أخبرتني بحتمية
الولادة اليوم. وأن أي تأخير من شأنه الإضرار
بحياة الطفلة!

هكذا فجأة. يجب أن ألد اليوم. يجب أن
تكتمل أمومتي قبل أن أخسرها. بهتُ وارتبكت.
وكأنني لم أكن أعلم طيلة الشهور الماضية أن
هذه اللحظة قادمة لا محالة. وكأنني ما كنت
بشوق ولهفة لبلوغها..

كل ما فعلته هو أن هرعت إلى منزل
والدتي. وما إن رأيتها إلا وبدأت بالبكاء. أمديني
يا أمي بقوتك. أمديني بسرك الذي جلبت من

خلاله لهذه الحياة أربع حيوات.

عدت لمنزلي بعدها والوقت أمامي يمتد
لسبع أو ثمان ساعات، وبدأت أستعد لهذا الحدث
الأهم في حياتي، بدأت أطمئن على جاهزية
حقيبتني، الثياب البيضاء الصغيرة بجانب ثيابي،
الثياب التي لن تظل فارغة بعد اليوم، ستملئ
قربا بالجسد الصغير.

تناولت في المساء عشائي وبدأت طقوس
الاستعداد للولادة، أردت أن أذهب للمشفى كما
تذهب العروس لقاعة الاحتفال، تحممت وتطيبت،
أشعلت البخور وأتحت لدخانه الاتحاد بخصلات
شعري، فطرات هنا من دهن العود وهناك زخات
من العطر، غرست في أذني حلقاً زهرياً صغيراً
ولبست خاتم الزواج، أردت أن يكون لقاءنا الأول
يا صغيرتي محفوفاً بالجمال..

تحقق النبوءة

لما جاءها المخاض

لم يكن بجانبني جذع نخلةٍ لأهزه. ولكن
أمي أطعمتني رطبًا جنيا. تساقط علي من يدها
كثمراتٍ تحمل سر مريم. إذ جاءها المخاض
وحيدةً تحت جذع النخلة. زملتني بأدعيةٍ وآيات.
واستودعت رحمة الله طفلةً كان قد أودعها
رحمها ذات يوم.

وراحت. تركتني في الغرفة وحيدة. أواجهُ
لحظة الألم الكبرى. لحظة النضج الحقيقي
للجسد الأنثوي لحظة انتزاع الحياة من الحياة.
واستخراج الروح من الروح. كانت الساعات
السبع للمخاض وآلام الطلق كساعاتٍ أبدية.
كألمٍ لا انتهاء له وكحياةٍ معلقةٍ بين الموت
والحياة. لله درّ الأمهات. كم من آلامٍ احتملناها
تلبيةً لنداء الأمومة في أعماقهن.

احتضنت الممرضة بشدة ورحت أبكي.
وحين يخف الألم كنت أحدث نفسي. وأكتب

في شاشة الهاتف كتجسيدٍ للحظات وتخفيفٍ
لوطأة المعاناة..

أعطتني إبرةً مخدرة فغلبنى النوم. صحوت
إذ صحوت وكأنني مسروقةً في حلم. الغرفة
بيضاء من شدة النور والطبيبة والممرضات
في جلبةٍ وحركةٍ سريعة. كانت صرخة الحياة
ممتدة من قلبي إلى القلب الصغير. كانت
صرخةً متصلة بين أُمي وألم الوليدة. رأيتها
محمولةً أمامي. مخلوقةً صغيرةً زرقاءً باكية.
لحظةً من الدهشة. لقطةً تعلق بالذهن كصورةٍ
فوتوغرافية. كلوحةٍ شاهدةٍ على بدء الحياة..

وغاب عني الوعي مجددا. جاءني صوت أُمي
من بعيد. وكأنني في وادٍ وهي على قمة جبل.
جاءني صوتها من فوق سرّياً. لا تخافي ولا تحزني
وقري عينا. طفلةً بيضاءً كالقطن. طفلةً جميلة..

كان صوتها. فرحها. لكنة البهجة في
حشرجة كلماتها. كلحن خالدٍ في أذني. سأظل
أسمعه كلما أغمضت عيني وتذكرت ساعة الولادة.

أن يولد طفل

كلما ولد طفلٌ جديدٌ
وهب العالمُ أمأً جديدةً
وازدادت في العالمِ مساحةُ الجمالِ..
نبتت زهرة
غردت عصفورة
تفتحت ياسمينه
وتفجّرَ نهرٌ حنان
كلما ولد طفلٌ جديدٌ
وهبَ العالمُ أمأً جديدةً
اكتمل نمو قلب
اكتملت استدارة قمر
واتسعت سماء ..

نَبْعٌ مِنَ الْجَنَّةِ

عندما ضممتكِ إليّ لأرضعكِ للمرة الأولى
سعدت لالتحام جسدينا من جديد بعدما
انفصلا. سعدت بإعطائك طعامك الأول. شعرت
وكان حليب الأمهات يأتي من نبع تفجّر في
الجنة. يشرب منه الرضيع شربة لا يظمأ بعدها
أبدا. شعرت بأنه أكسيرٌ للحياة. ونبعها الخالد
الذي لم يفتأ منذ الأزل يمد الصغار بسرّها. لا
ينضب ولا يجف كما تدعي بعض الأمهات اللاتي
يتكاسلن عن الرضاع. نبعٌ تدفق من الجنة لا من
ضرع بقرةٍ كالحليب الصناعي!

كلما ضممتكِ إليّ لأرضعكِ أشفقت على
الأمهات اللاتي بعن الجزء الأجل من أمومتهم
على زجاجة الحليب. بثمنٍ بخسٍ، دراهم معدوداتٍ
وكن فيه من الزاهدين!

الأمهات اللاتي حرمن أنفسهن متعة تعلق
الطفل بهن، وحاجته الكاملة لأمه كمصدر حنانٍ
وأمانٍ وغذاءٍ كما كان في رحمها. أشفق على

الأمهات اللاتي يعتقدن بأن الولادة هي السبيل
الأوحد للخلاص من هذا الكائن المزعج المتطلب،
فيبدأن أمومتهم الناقصة بالاستعانة بالخدمة
وزجاجة الحليب! تاركات وراء ظهورهن كل الدراسات
التي تشير لأهمية الرضاعة الطبيعية وفوائدها
الجسدية والنفسية للطفل بل ولأمه حتى.

الرضاعة بالنسبة لي كانت أجمل احساس
يهبه الطفل بعد الإحساس بحركته وهو جنين.
كانت طقساً من أجمل طقوس الأمومة. حالة روحية
يلتحم فيها الجسد الصغير بالجسد الكبير .

وكنت أتأمل كثيراً بقول الله في وصف
القيامة (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما
أرضعت) فلما أراد أن يستشهد بأعظم رابطة
وعلاقة تجمع البشر لم يقل كل والدة عما
ولدت. ولا كل محبٍ عمن أحب. بل كل مرضعة
عما أرضعت. وفي ذلك دلالة على قوة الرابطة
التي ستربط الأم بطفلها الذي ترضعه. ومدى
الحب والقرب والتعلق الذي سينشأ بينهما.

سُلاَف

مُبَارَكٌ لِكَ الْاِسْمِ الَّذِي حَظِيْتِ بِهِ
سُلاَف..

وَالسُّلاَفُ هُوَ خِلاَصَةُ الشَّيْءِ
وَأَنْتِ
خِلاَصَةُ رُوحِي

طقوس الصباح

بالرغم من أنك لم تدركي شيئاً بعد من
لغة الكلام. كانت عينك مع بزوغ كل شمس
تقولان لي:

صباح الخير يا ماما..

كنت أصغر من أن تشاركوني تفاصيل
الصباح. كوب الشاي. شطائر الإفطار. فصل من
كتاب أو فيلم كلاسيكي. لكن وجودك بجانبني
كان يجعل كل تلك الطقوس أجمل.

عجز

في الطفل تبدى كل مظاهر الضعف والعجز.
وفي الأم تتجلى أسهى صور الرحمة. يرينا الأطفال
كم كنا عاجزين. ضعفاء ومساكين حين أتينا
للحياة. وكم كانت أمهاتنا عظيمات. عندما تبكين
كنت أتمنى لو أنطقك الله كما أنطق عيسى وهو
في مهده. فقط لتخبريني كيف أخفف عنك. وأين
يكمن الألم في جسدك الصغير.

كنت كلما رأيت الألم في وجهك وسمعت
الآه في صوتك أدرك كم عانت أمي من أجلي.
أدرك كيف يتضاعف احساس الأم بالألم. كيف
تشعر به حين يقع أياً من أبنائها بين براثنه. حتى
إنني صرت لا أدري. أيهما أشد على النفس. ألمها
أم ألم الأبناء.

فمن ظن يوماً أن آلام الأم تنتهي بمجرد
الولادة مخطئ. بل معها تبدأ. وكلما مس الطفل
وجع أو سوء. تزيد..

قبلة

أنتِ يا طفلي قِبلةٌ قلبي
أيمم شطركِ كلما هممت بالدعاء
أعلق حبكِ كتميمةٍ تطرد أشباح الحزن عن

حياتي

وتجلب لأيامي الفرح الوفير
أنتِ يا طفلي بعضي
أنتِ قبسٌ من روعي
وامتدادي الذي يرتبط بحبلي السري أبدا
دون انفصام

٢٠ ملاك باسم

إنها الرابعة فجراً، وكنيتِ نائمة. استلقيت
بجانبك لتأمل وجهك فابتسمت. ابتسامة جميلة
هادئة فابتسمتُ بدوري وهمستُ لك: أحبك ..
لحظاتٌ وإذ بكِ تبتسمين من جديد. فتذكرت
قول قريبةٍ لي بأن الصغار حين يبتسمون في
نومهم يبتسمون لأن الملائكة تلاعبهم. فيا
ملاكي. افرحي بصحبك أقرانك من الملائك
وهم يحفونك في نومك و يزاحمون الحلم على
ابتسامة من شفطيك.

عيد

فساتينك البيضاء الصغيرة
كلها تحتشد
في الواجهة الزجاجية لدولابك
وجِلَّةٌ هيّ..
ترتقب
أيها سيكون فستان عيدك الأول

الشوق إلى الداخل

شهرك السادس تمت أيامه، مذ بزغت
اكتملت ست أقمارٍ وأفلت مثلها، بقي للأرض
من دورتها حول الشمس نصف المسير لتعاود
سيرتها الأولى في يوم مولدك، وأنت هنا، أمامي
الآن تسبحين في فلكٍ كبيرٍ أود لو أنني أمتلئ
بك مجدداً، أعيدك لفلكك الأول، مدارك المتكور
بداخلي، كونك الدافئ المربوط بحبلنا السري..
أود أن أمتلئ بك لأعيد كتابتك، لأنغمس
في البوح لك، البوح عنك، ولأمارس كتابةً تليق
بحقيقة الأنثى.

هنا أنتِ أمامي، وأشتاق لكِ أنا بداخلي،
أتحسس بطني الضامر الخالي من حياةٍ كانت
تسكنه، المنسحب من وجه الوجود والناكص
لداخله، تركلين الهواء وأشعر بقدميك تمتد
بداخلي، بنتواةٍ تبزغ فجأةً جهةٍ رحمي وتغيض،
فأضحك كما كنت أفعل حين كان ذاك..

أشتاق لكِ بداخلي وأنت أمام عيني. كما
كنت أشتاق لأن تكوني أمام عيني وأنت بداخلي.
أشتاق أن نعود جسداً واحداً بروحين، جسداً
واحداً بحياتين، جسداً واحداً بأنثيين ..

قراءة في وجه صغير

مستغرقةً في نومك، ملتفةً بقماطك
الأبيض كملكٍ صغير يضم جناحيه ويغفو.
قبالتك أنا أتفرّس في وجهك، أتأمله، أستقرئ
بين ملامحه أحلامي بمجئتك، ألامسه بدفء
قلبي ونظراتي، فتفتح عينيك بخدر بكسلٍ
ونصف إغفاءةٍ أو يقظة، ترمقيني بطرفها ثم
تسدلين جفنيك وتعودين لإكمال الحلم، تعودين
له بعدما تأكدت من وجودي بجانبك، حارسةً
لروحك، قريبةً من جسدك، باعثةً للحب والأمان
في قلبك الصغير.

قلب

يكون الطفل ابتداءً
بحجم بطن أمه..
يخرج،
فيصبح بحجم حضنها
يكبر
فيصبح بحجمها
ولكنه مهما امتد فيه العمر
فلن يصبح أبداً
بحجم قلبها..

وفي غدٍ..ستكبرين

تغافلينني في كل يوم، تنامين بجانبني
وحين أصحو أراكِ أكبر، وأنا التي كنت أظنك
ستبقين أبدا صغيرة، أحب حجمك الذي يجعل
من حضني لك سريرا دافئاً. صرت أخشى يوماً
تكبرين فيه فلا يعد يكفيك.

ثيابك التي كانت فضفاضةً كبيرة، قدماكِ
الصغيرتان تخرجان من بين أزرارها، أصبحت
تلتصق بجسدكِ شيئاً فشيئاً، يحزنني أن لا
ترتديها مرةً أخرى، وبينما كنتِ تكبرين كانت
الفساتين تتشبث بطفولتها، وتخاف أن تظل
وحيدة..

أطل عليكِ في الصباح وإذ بكِ أطول قليلاً
مما كنتِ عليه بالأمس، فأغني لكِ في قلبي مع
ماجدة:

نامي يا حلوتي الصغيرة..سريركِ الأحلام
أنتِ غداً كبيرة.. وتسرعُ الأيام

هدهدات

روح الأم لا تفارق ابنتها أبدا. تظهر في كل تفاصيلها. طريقة لباسها. حديثها. تفكيرها وحتى في الأغنيات التي تهدهد بها صغارها بعدما تصبح أما.

وأنا أغني لصغيرتي كي تنام. كنت استحضر روح أمي عندما كانت تهدهدني صغيرة. ذاتها الأغنية وذاتها نبرة الصوت. كنت أتحسس كفها الدافئ يريث على كتفي. جسدها ممتدً على السرير بجانب جسدي والحكاية ما قبل النوم تمهدُ للأحلام..

الأمومة الأولى

مثيراً عينا الطفل الذي يتفحص العالم،
الذي يتعرف عليه لأول مرة، يبخلق في كل شيء
وتدهشه كل حركةٍ والتفاته. يعلمنا الأطفال
كيف تبدو الحياة، كيف تبدأ، وكيف تستحق
أبسط الأشياء أكوام فرح. فالطفل حين يولد
يسلبك حياتك القديمة، لكنه حتما يهبك
الحياة من جديد.

أجمل ما في الأمومة الأولى هي التجارب
التي تعيشها الأم كل يوم لأول مرة مع تفتح
حواس طفلها وبداية إدراكه للعالم. أجمل ما
في الأمومة الأولى كلمة ماما لأول مرة يقولها
الطفل الأول. السن الصغير يبرز أسفل الفم
المكتنز الابتسامة الأولى يومئ بها الطفل
في نومه دون قصد. الاحتضان الأول يجمع الأم
والأب والوليد، كروحين انشطرت لثلاثة، المحاولة
الأولى للمشي، تتعثر فيها الأقدام الغضة فتقع.

ويضحك الصغير معاودًا الكرة.

أجملُ ما في الأمومةِ الأولى، رحلةُ التسوقِ
الأولى، العربةُ تدفعها الأمُ أمامها، والطفلُ نائمٌ
بأمان، الزيارةُ الأولى للأهل، الكلُّ مبتهجٌ لقدم
الضيف الجديد، الكلُّ متشوّقٌ لإلقاءِ نظرةٍ
وتخمينِ الشَّبهِ.

أجملُ ما في الأمومةِ الأولى أن صارت المرأةُ
أماً..

جمعتك بركة

نشعرنى الجمع بأنها أيام عيد. بالرغم من
مجيئها كل أسبوع إلا أنها تبقى محتفظةً بروحها
التي لا نملها ولا نشعر أبدا برتابتها. أيامٌ هي
تستحق أن نجمل من أجلها أرواحنا قبل أجسادنا.
تستحق أن نلقاها بقلوبٍ مقبلة على الخير.
الصلاة والحب. وكل ما يسعد الله فيسعدنا.

حين تحين الجُمع سأعلمك كيف تستقبلين
العيد بقلبك. سأغطس معكِ بحوضٍ نملأه
سويًا. سأطيب جسديك بالأطيب العريبة وأخلل
خصلات شعرك بالزعفران. سنطوف أرجاء منزلنا
حاملين المباخر ونبخر ثوب بابا قبل أن يذهب
للصلاة. سنرتدي ثوبا أبيضاً وسأجلسك على
سجادتي وأقرأ عليك: الحمد لله الذي أنزل
الكتاب ولم يجعل له عوجاً

سأعلمك كيف تدخلين الكهف كل جمعة.

وتخرجين ملئى بقبساتٍ نوره ..

سجنٌ أبيض

السرير الأبيض
ذو الحواجز والأعمدة
المغطى بالدانتيل
والمليء بالألعاب
يبدو كجنةٍ صغيرةٍ
إلا أن الطفلَ بداخله.
يراهُ سجننا..

كعكاتٌ صباحيةٌ

الأطفال لحظة استيقاظهم من النوم، كالكعكة الخارجة لتوها من الفرن، شهية جداً، لكنك لا تستطيع إتهامها، ولعل ألد قطعة حلوى يتناولها المرء بعد إفطاره، هي طفلاً صحنى للتو، كلما هم بعضه على وجنتيه أو رجليه امتلاً المكان بالصخب والضحك.

حين تطيلين نومك كنت أشعر بالضجر، أحاول إيقافك برفع الستائر أو إحداث جلبة بسيطة، وأجمل اللحظات هي عندما تستيقظين بمفردك، وأكون منهمكة بعملٍ ما خارج الغرفة فيأتينني صوتك وأنت تنادين بكسل: ماما، ماما .. أتعمد مغالبة الشوق، والتأخر عليك فقط لأسمعها أكثر، وأحياناً كنتِ تتحدثين مع نفسك، بكلماتٍ لا مفهومة وكأنكِ تراجعين محفوظاتك الخاصة، آتيك فجأة وأطل بوجهك قائلة: صباح الخيبير، أتعمد مداها ونطقها

بغنجٍ مع إمالةٍ رأسي فتضحكين. تمدين يديكِ
للعناق فأحملك. أحملكِ ولا أنسى إتهام
حصتي من خدكِ الطري.

صداقةٌ مبكرةٌ

يقال بأن البنت مجرد طفلة صغيرة . لكنها
ستكبر لتصبح أفضل صديقاتك.

صداقتي مع سُلّاف لم تنتظر . صداقتي
معها ابتدأت منذ بدء تخلقها بداخلي. كنت
استشعر دوما وجودها الكثيف معي. لم أشعر
أبدا بالوحدة وأنا أحملها جنيناً ووليدةً ومن ثم
طفلة . تشاركني أعمالِي اليومية حتى وإن
كانت لا تعيها. تجلس بحضني حين القراءة.
تجلس بكرسيها الصغير في المطبخ وأنا أعد
الغداء. وتشاركني رحلات التسوق وزيارات الأهل
والأصدقاء. حتى وإن كانت لا تفهم القصة قبل
النوم. كنت أسعد إذ تنام على صوتي.

أنا أنظر لها دوما على أنها أنا بنسخةٍ
صغيرة. وكأنها ماضيي يعود من جديد ليلحق
بي كالظل الصغير يمسك بطرف فستانِي
ويناديني ماما ..

تجدد الأسطورة

فَيْض

تمتلئ المرأة بالحياة فتفيض. تتضاعف في
حيواتٍ أحر تتفرع كشجرة طيبة. حولها ينمو
الأطفال ولا تدري كم من الثمر سيتدلّى من
أغصانها بعد..

هكذا كنتُ أشعر ونحن مستلقيتان على
السريّر. تتقلبين أنتِ بجانبِي في شهرك العاشر
بينما يتقلبُ في أحشائي طفلٌ جديد. شعرت
وكأنني أتجدد مجدداً. أتأهبُّ للعودة للحياة عبر
هذه الروح الجديدة. أشعرُ بي كثيفةً جداً. أشعر
بأني طاغيةٌ الحضور.

كنا أنا وأنتِ وهي. ثلاثُ نبوءات. ثلاثُ أساطير
وثلاثُ حبالٍ سرّية..

فلصغيرتي سلاف. وللصغيرة الأخرى التي
لم تولد بعد. ولكل أنثى تنتظر النبوءة
كانت هذه التجليات

حبلنا السري

تجليات أدبية
في الأمومة
والحمل والولادة

إيلاف عبد الرحمن الریش

• كاتبة من الكويت

• آذار 1989

• زوجة، أم لطفلتين، ولا

أدري كم من الحيوانات سأأتي
بها بعد

• درست القانون ومارست
الكتابة

• تويتر: @ealaf_al

لوهلة ما، تبدو الحياة وكأنها لا شيء، وكأن
الكرة الأرضية قد تلاشت لتنمو في بطني
المتكور من جديد..

حين أخلو بك في سكينه الليل، بين جدران
أربع تلفنا إضاءة خافته والدنيا حولنا في
صخب، لاهته مزدحمة، أبك شوقي وحبى غير
عابنه بأحد سواك، كأن لا أحد سواك كان يوما.
ألتحف بأغطية ثلاث، وأشد حولنا حبلنا
السري وننام ملتصقتين، ملتصقتين جدا إلى
حد تسكن إحدانا الأخرى..

وحين يغشانا الصباح، أصحو بشوق جديد
لك، أترقب وكزتك الأولى لأقول: صباح الخير،
صباحك فرح يا صغيرة، أدرك بأنك قد
استيقظت لتوك، وأنك تفركين عينيك بيدك
الصغيرتين لتزيحي عنهما بقايا الأحلام.

ولكني أتساءل حينها، أتراه نور الصباح بلغك
من بطني أم من عيني؟



منشورات دفاف
DIFAFPUBLISHING
editions.difaf@gmail.com